الدكتور الفيل يكشف عن دقائق اللغة العربية وأسرارها

في اولى ندوات كلية الانسانيات هذا العام كان الموضوع هو اللغة العربية .. وكان مقدم البحث هو الدكتور توفيق الفيل استاذ البلاغة بقسم اللغة العربية .. ولم يكن الموضوع الدقيق للبحث تقليدا ولا كانت طريقة المعالجة تقليدية ايضا !! فالباحث لايرى جوهر اللغة العربية في ضبط اواخر كلماتها .. كما انه لايرى تلك اللغة كمجرد وسيلة للتفاهم .. بل ان دراسة اللغة عنده تبدأ بتحقيق الصحة اللغوية وتمتد لتشمل الالمام باسرار اللغة العربية ودقائقها .. وهي كثيرة اتيح له خلال عرض هذا البحث التعامل مع بعضها مثل الاشتقاق والتصريف واساليب التخفيف والايجاز والاطناب .. إلخ .. ولان الدقائق والاسرار قد يساء فهمها اذا حاولنا عرضها ، باسلوب الصحافة ، فاننا نترك الدكتور الفيل يكشفها بنفسه .. يقول :

يعتقد كثير من الناس ان اللغة العربية عبارة عن ضبط اواخر الكلمات . ويترتب على هذا الاعتقاد ان الذين لايجيدون ضبط اواخر الكلمات يقللون من شان اللغة . ولاينظرون اليها الا على انها وسيلة تفاهم بين الافراد . ومادام هذا التفاهم يتحقق بهذه الوسيلة او تلك فالزيادة على ذلك نوع من التعسف والمشقة لادا عي لهما . وربما تمادت طائفة من هؤلاء فاتهمت اللغة العربية بالقصور وعدم الوفاء بحاجات العصر ومتطلباته . ومن ثم فالاستعاضة عنها بغيرها من اللغات اجدى ، واكثر فائدة .

وفي مقابل هذه الطائفة توجد طائفة اخرى تعطي لضبط اواخر الكلمات الاهمية العظمى وهي ترى ان من يجيد هذه الناحية يتم له المراد ..

والى هؤلاء واولئك تتحدث هذه المحاضرة ..

فمنذ القدم ادرك العلماء مجانبة هاتين الطائفتين للصواب ، وبعدهما عن الجادة . فاللغة العربية ارحب افقاً . واعظم جنى من الوقوف عند اواخر الكلمات . وصحة ضبطها . وقد اشار هؤلاء العلماء صراحة الى ان الصحة اللغوية لاتعدو ان تكون مستوى اول للمعنى . وبعد هذه الصحة غايات تحدث عنها ابن خلدون وعلماء البلاغة . ان ابن خلدون يرى لغة العرب بعد تحقق الصحة .

وتمتد القضية لتحدث نوعا من الصراع بين علماء اللغة الذين تقف غاياتهم عند تحقق الصحة ، والادباء الذين يرون لغة الشعر والادب تقوم على التوسع ، والتحقيق يفسدها لانه يحد من غاياتها وامادها وتحدثنا كتب الادب والنقد عن اشكال من هذه المعارك حدثت بين الفرزدق واحد علماء اللغة الكبار في عصره . وذلك حين قال الفرزدق يشكو زمانه :

وعض زمـان يـابن مـروان لم يـدع من المـــال الا مسحتـــا او مجلف

ولم يثر انتباه ابن ابي اسحاق الحضرمي سوى الخطا الاعرابي المتمثل في رفع كلمة ، مجلف ، . فقال للفرزدق : علام رفعت ، مجلف ، فقال له الفرزدق على مايسوءك وينوءك .. علينا ان نقول وعليكم ان تعربوا. وقد ضايقت هذه الحادثة الفرزدق . فقد صرف الرجل القول عن غايته . وغفل عن مشاعر الالم فيه . ولم ينتبه الا للاعراب الذي يرى الشاعر انه يمكن التماس وجه له . وقد هجا الفرزدق ابن ابي اسحاق هجاء مؤلما . فقال :

ولـو كـان عبـد اللـه مـولى هجـوتـه ولكن عبـد اللـــه مـــولى مـــواليـا

ولم يتالم الرجل لهذا الهجاء الذي يجعله عبدا لعبد ، ومن ثم لايستحق ان يتناوله الشاعر بالهجاء ، ونظر الى خطا إعرابي آخر وقع فيه الشاعر وهو نصب كلمة ، موالياً ، .

وتعددت صور المنازعات بين علماء اللغة والشعراء . ويذهب الادباء والشعراء الى ان اهل اللغة ليسوا مؤهلين لنقد الادب والنظر فيه ، لان غايتهم تقف عند المعاني والبحث عن الغريب ، وصحة الإعراب .

وفي العربية دقائق واسرار كثيرة يجب النظر اليها بعد تحقق الصحة .

ان من دقائق اللغة مايخفى على العلماء .. وساضرب لذلك مثالين : الاول ما اشكل الامر فيه على واحد من القراء السبعة . هو نافع بن نعيم . فقد قرا قوله تعالى : « ولقد مكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش ، وجعلنا لكم فيها « معائش ، ظنا منه ان الياء في « معايش » مبدلة من الهمزة . نحو كتيبة وكتائب . وقد اتهم ابو عثمان المازني نافعا بالجهل وعدم معرفة العربية . وذلك لان معيشة ليست على " فعيلة ، وانما هي « مَفْعلة » ومن ثم لايتحقق فيها شروط القلب . والحديث في معيشة يسلمنا الى نوع من الاسرار والدقائق في العربية . ذلك هو مايدخل الكلمة من الاعلال والابدال . ومايدخل حروفها من الحذف حتى تصل الى اخف صورة . وتتبع كلمة معيشة يؤكد لنا هذا . واشير الى ان باب الاعلال والابدال من اوحد الابواب التي اهتم بها علماء اللغة والذي ميز العربية .

ان العربية تعج بالدقائق والاسرار . وقد اشرت الى بعض الجوانب . ولازال عندي الكثير وربما ماخفي عليّ اكثر .. فالاطناب -والالتفات . ومايطلق عليه تجاهل العارف ، او الخروج على مقتضى الظاهر كلها نكات واسرار ..

افيعد هذا نقول : ان اللغة العربية تقف عند حدود الصحة اللغوية .. ويقضي منها الوطر مَنْ عرف رفع الفاعل ونصب المفعول ..